الحكومة وتحقيق السعادة

روبرت مينارد

موقع قضايا أمن الأسرة 1 سبتمبر 2009

A Conflict of Visions

By **Robert Maynard**

Family Security Matters *Website*

ترجمة: علي الحارس

روبرت مينارد

مدير مشروع فيرمونت لتقدم الحرية.

جاء القرن العشرون حاملا معه تحديات خطيرة لمفهوم أمريكا عن حقوق الإنسان والذي تستمده من رؤية قوامها الحرية والفضيلة. ويشير برينك ليندزي (Brink Lindsey)، وهو من الباحثين الأساسيين في معهد كاتو، في مقالة كتبها في 28 سبتمبر 2001 بعنوان (آخر الشموليين) إلى أن التحديات المتنوعة التي واجهناها ليست إلا نسخا مختلفة من رد فعل شمولي (توتاليتاري)، كان ينتشر في الأرض خلال القرن التاسع عشر، على ايديولوجيا الحرية ذات الاستلهام الأمريكي. وما أسامة بن لادن والايديولوجيا الجهادية الأصولية التي يمثلها غير رد الفعل الأخير على مفهومنا عن (الحرية تحت سلطة القانون).

إن الايديولوجيات الشمولية التي واجهناها ليست إلا تجسيدا متشددا لرؤية متناقضة متأصلة في (الجماعية الطوباوية). وهذه الرؤية تنظر إلى المجتمع باعتباره كلا جماعيا واحدا لا يشكل أفراده إلا أجزاء من هذا الكل. ويعتقد مناصرو هذه الرؤية أن المجتمع الطوباوي ممكن التحقيق إن توفر الأشخاص المناسبون لتولي مهمة «الهندسة الاجتماعية» للصالح العام، وهذا يتم من خلال إجراءات حكومية من القمة إلى القاعدة. ومن المؤسف أن نسخة مخففة نوعا ما من هذا المفهوم قد تسربت إلى تفكير الكثير من القطاعات الثقافية «المشكِّلة للرأي» والى القيادة السياسية للمجتمع الغربي، وبضمنه الأمريكي، حيث أصبحت تعرف باسم «الليبرالية».

ولفهم كيفية حصول ذلك علينا أن نعود لفهم الفارق بين (الاشتراكية الثورية) و(الاشتراكية التطورية)؛ فالشيوعية والنازية (الاشتراكية القومية) مثالان على الاشتراكية

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

الثورية التي تسعى إلى الإسقاط العنيف للنظام السائد من أجل استبدال نظام اشتراكي به، ويقود هذا المسعى كادر صغير منضبط، وتقتصر العضوية في مثل هذه المنظمات على «المؤمن الحقيقي». وبعد اندحار النازية وانهيار الشيوعية العالمية، لا يزال العديد من أنصار الاشتراكية الثورية على تواز مع أهداف الجهاديين العنيفين، والذين يرون فيهم أفضل رهان من أجل تمزيق النظام الرأسمالي الحالي.

وعلى الرغم من أن الاشتراكية الثورية هي النسخة التي يألفها معظم الأمريكيين، فإنها لم تكن النسخة التي حققت النجاح الأكبر في إعلاء شأن الأفكار الثورية في المجتمع الغربي. ويتفق الاشتراكيون التطوريون مع الاشتراكيين الثوريين حول الهدف النهائي للمجتمع الاشتراكي، ولكنهم يختلفون حول الوسائل المقترحة لبلوغ ذلك الهدف؛ فهم يرون أن الإسقاط العنيف للنظام القائم منهج غير ضروري وغير عملي قد لا ينتج عنه غير إيقاظ المجتمع المستهدف. وفي رأيهم أن الاشتراكية سوف تتحقق تدريجيا من خلال تحويل المجتمعات من الداخل بتسريب الايديولوجيا الاشتراكية إلى مؤسسات المجتمع. وليس للاشتراكيين التطوريين نمط خاص بهم، بل يتنوعون بحسب المجتمع المستهدف؛ وهم لا يهتمون كثيرا ببناء قيادة منضبطة لقيادة الثورة، بل يركزون على تقبل الايديولوجيا الاشتراكية على نحو متدرج تراكمي من قبل المجتمعات المستهدفة.

علاوة على ما سبق، يدخل الاشتراكيون التطوريون في شراكة مع مختلف الجماعات ذات الاهتمامات الخاصة، والتي ليست ملتزمة بالاشتراكية تماما، وإنما لها أجندة لتوسيع دور الحكومة المركزية من أجل دفع ذريعة الاشتراكية إلى الأمام. فعلى سبيل المثال: تستغل الجهادية الثقافية مكاسب الاشتراكية التطورية في تصوير الغرب على أنه مجتمع اضطهادي وغير عادل يسقط الكثير ضحية له ومن بينهم المسلمون، فيكون علاج هذا القمع بمنح كافة المسلمين امتيازات لموازنة وضعهم، ولهذا السبب تجد جوانب من الإسلام تدرس في المدارس الأمريكية رغم «الفصل بين الكنيسة والدولة». وليس المهم هنا ما تتمتع به الجهادية الثقافية من نفوذ سياسي كبير، وإنما المهم أنها نجحت في

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

إظهار نفسها بمظهر الطبقة المظلومة وإقناع الأمريكيين بأن إدخال تلك الجوانب إلى المنهاج المدرسي أمر مطلوب لمكافحة الجهل الذي يؤدي إلى الاضطهاد لا محالة.

وقد نالت هذه الاستراتيجية تأثيرا عاليا إلى حد أن قيادتها أخذت تصم الأمريكيين الذين يعارضون المؤامرات الطوباوية تحت شعار الحفاظ على رؤيتنا لمفهوم (الحرية تحت سلطة القانون) بوصمة الرجعية الأنانية في أحسن الأحوال، وبالتطرف الخطير في أسوئها؛ ودائما ما يشار إليهم بأنهم «عنصريون». ومع ذلك، تكمن المفارقة الحقيقية هنا في أن من يتقبل مفهوم الجماعية الطوباوية هو الرجعي فعلا.

لا يمكن تحقيق الانتصار في هذه المعركة بالاستجابة السياسية على كل تهديد يمس حرياتنا على أساس معالجة قضية في كل مرة؛ فالقضايا المتفرقة جزء من «تضارب في الرؤى» كلي؛ ومن يسعى إلى الحفاظ على حقوقنا الدستورية عليه أن لا ينسى وأن يذكر العالم دائما بأنه منخرط في محاولة فعالة لإحياء رؤيتنا للحرية أولا، وهو ما عاد علينا بهذا القدر من الرفاهية التي نعيش فيها حاليا. وبالطبع، فإن تلك الحقوق منصوص عليها في الدستور الأمريكي، وهذا الدستور كان، على الرغم من ذلك، نصا قانونيا يمثل مبادئ معينة اعتنقها مؤسسو أمريكا ومن تلاهم؛ وتلك المبادئ تم التعبير عنها في نص (إعلان الاستقلال)، وفهم هذه المبادئ، التي يستند إليها مفهومنا عن الحقوق، يمثل مفتاح الحفاظ على هذه الحقوق. وعلى الرغم من ذلك، فإن هؤلاء الذين يسعون إلى تحقيق نظام طوباوي تفرضه الحكومة من القمة إلى القاعدة، يجدون في مفهوم الحرية الفردية عرضا من أعراض الأنانية، وهذا الفهم مؤداه الحتمي إلى الفوضى وتدمير الصالح العام.

يدرج (إعلان الاستقلال) في نصه «الحقوق الثابتة» التالية: «الحياة، الحرية، السعي إلى السعادة». ويعكس الترتيب الذي وضعت فيه هذه الحقوق رؤية حول كيفية استحصالها في المجتمع البشري. فالحياة، بالطبع، تأتي أولا لأنه ما من شيء آخر ممكن الحدوث لولا هبة الحياة الغالية؛ ثم تأتي الحرية ثانية باعتبارها عنصرا لا غنى عنه في سعي الإنسان

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

الحكومة وتحقيق السعادة

ضمن المجتمع، ولها موقع جوهري في الطبيعة الإنسانية بحيث أن أي محاولة تهدف إلى تحقيق الصالح العام دون الالتزام بالحريات الفردية هي محكومة بالفشل قطعا.

وكما أشرنا في السابق، تعود أولى المخططات الطوباوية إلى جمهورية افلاطون الذي كان ينظر إلى المجتمع باعتباره كيانا جماعيا واحدا يتحقق فيه الصالح العام من خلال حكام يخضعون المصالح «الأنانية» للأفراد لمصلحة الخير الأعم للمجتمع الأشمل. لكن مؤسسي أمريكا كانوا على علم بهذه المخططات وما سجله التاريخ من أنها تؤول حتما إلى البؤس والاستبداد لأنها تنتهك المبادئ الأساسية للطبيعة البشرية. وكان مفهوم حاجة الطبيعة البشرية إلى (التشارك الحر بين الأفراد للسعي إلى السعادة وتحقيق الصالح العام) يعرف بمصطلح «النظام الفطري». وهنا لا بد من توضيح حول مفهوم «السعي إلى السعادة»؛ فمفهومنا الحالي عن السعادة يقتصر على معنى المتعة واللذة، وترانا نرغب بأن نشعر بالسعادة العابرة دون بعد نظر ومن هنا تكون الأمسية الممتعة والنشاط المسلي طريقا للسعادة، لكن ذلك لم يكن ما فكر به مؤسسو أمريكا.

وعلى النقيض من ذلك، كان قدماء الإغريق، والذين استفاد منهم المؤسسون في النظر إلى هذه المسألة، يرون السعادة من منظور مختلف. فقد تكلم ارسطو عن تحقيق اليودايمونيا (Eudaimonia)، وهو مصطلح يترجم اعتباطا إلى السعادة؛ فاليودايمونيا ليست حالة عاطفية، وإنما هي أن تكون بكل ما يمكنك أن تكونه وتنجز كل ما هو مكنون فيك. وتتلخص فكرة (اليودايمونيا) في أن العيش على نحو يصل إلى إمكاناتك جميعها يجعلك مزدهرا وبالتالي يعرض أفضل نسخة لك يمكنك أن تكونها. إن ذلك يعني السعي الجهيد إلى الآريت (Arête)، وهو مصطلح يترجم اعتباطا إلى الكمال أو الفضيلة، والوصول إلى درجة الآريت يتطلب كفاحا مريرا، أو ما يسميه الآغريق بالآغون (Agon)، وهو ما لا يتحقق بسهولة.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

الحكومة وتحقيق السعادة

لا شك في أن سعي الفرد للكمال أصبح بالضرورة مسألة اجتماعية من خلال العائلة، كوحدة اجتماعية، والمؤسسات الطوعية. وكان عالم الدين والفيلسوف البيوريتاني جوناثان ادواردز معروفا بتأكيده على أن «الفرد لوحده ليس بإمكانه أن يكون كاملا»؛ وفي الواقع، فإن مفهوم «النظام الفطري»، والذي يظن كثيرون بأن له علاقة وثيقة بالاقتصاد، يشدد على أن الأفراد إن تركوا أحرارا للسعي إلى السعادة سوف يحققون الصالح العام بطبيعتهم. وعلى الرغم من أن آدم سميث يعرف بكتابه الاقتصادي الشهير (ثروة الأمم)، فإنه في الحقيقة كان فيلسوفا في الأخلاق، وكان كتابه الأشهر في وقته (نظرية النزعات الأخلاقية) وفيه يرى أن البشر يمتلكون حدسا (أو نزعة) أخلاقيا طبيعيا يجعلهم يجدون سعادة في عمل الخير للآخرين. ولأن مفهوم (الأخلاق) يستند على أن السلوك اختيار حر، فإن الاقتناع دون فرض كان هو الحاجة. ولقد آمنت بعض الجماعات، مثل الكويكرز، أن هذا المبدأ، مشفوعا «بالنور الداخلي»، هو ما تحتاج إليه؛ فلم يكن الكويكرز يجدون حاجة إلى قوة الدولة وأداروا مستعمرة بنسلفانيا لمدة من الزمن دون حكومة فعلية على الإطلاق؛ وهذا على الرغم من أن معظم أوائل الأمريكيين كانوا يعتقدون عموما بالحاجة إلى الدولة على الأقل لحماية حقوقهم من الذين يعجزون عن السيطرة على رغباتهم غير المشروعة.

هنا نصل إلى قضية جوهرية هي محل نزاع بين من يسعى إلى الحد من دور الحكومة ومن يسعى إلى توسيع هذا الدور لخدمة الصالح العام المفترض. فلماذا نعارض توسيع دور الحكومة لحل المشاكل الاجتماعية المتنوعة؟ وللإجابة على هذا السؤال من المهم أن نفهم كيف نظر مؤسسو أمريكا إلى الطبيعة الضرورية للحكومة. حيث يقول جورج واشنطن:

> «الحكومة ليست حكمة، ولا قولا بليغا، إنها قوة؛ كالنار: خادم هائج وسيد خائف،
> ولا ينبغي أن تترك للحظة تتخذ إجراء طائشا».

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

الحكومة وتحقيق السعادة

وفق هذه الرؤية ينبغي أن يكون دور الحكومة محصورا بشدة بما أن طبيعتها الضرورية تتجسد بالقوة، والقوة لم تكن أبدا طريقا مشروعا تتفاعل معه الشعوب الحرة. لقد كان توسيع دور الحكومة ينظر إليه باعتباره خطرا يتهدد حريتنا الغالية.

إن كان الأمريكيون الأوائل لا يعتبرون دور الحكومة متضمنا توفير حاجات الناس ورغباتهم، فمن كان برأيهم المسؤول عن توفيرها؟ يجيب ألكسي دوتوكوفيل[1] عن ذلك في كتابه الشهير (الديمقراطية في أمريكا):

> الأمريكيون بكافة أعمارهم ومراتبهم الاجتماعية وميولهم لا يتوقفون عن تشكيل الجمعيات. وليست هنالك جمعيات مالية وصناعية يشارك فيها الجميع فحسب، وإنما جمعيات أخرى من آلاف الأنواع: دينية، أخلاقية، جادة، عبثية، شديدة العمومية، شديدة الخصوصية، ضخمة جدا، صغيرة جدا. والأمريكيون يتعاونون لإقامة الولائم، وتشييد المعاهد، وبناء الكنائس، وتوزيع الكتب، وإرسال المبشرين إلى استراليا ونيوزيلندا؛ وبهذه الطريق تتشكل المستشفيات والسجون والمدارس. وفي الختام، عندما يريد الأمريكيون إعلان حقيقة ما أو نشر شعور ما من خلال التشجيع على اتباع مثل أعلى، فإنهم يقيمون جمعية لذلك. وفي جميع الحالات، تأكد أنك ستجد على رأس كل مشروع جديد في أمريكا جمعية مسؤولة عنه، بينما يكون المسؤول عنه الحكومة في فرنسا، أو أحد الأعيان في بريطانيا.

لا يشكل توسيع دور الحكومة تهديدا لحريتنا فحسب، وإنما يضر أيضا بصحة «المجتمع المدني» الذي يتصف بوجود جمعيات طوعية متنوعة يميل الأمريكيون إلى تشكيلها. أما تحميل الحكومة مسؤولية تحديد الحاجات والمخاوف، وهي مسؤولية المجتمع المدني، فيؤدي إلى مزاحمة وإضعاف المؤسسات الطوعية التي تشكل المجتمع الحر.

---

1) ألكسي دوتوكفيل (Alexis de Tocqueville): كاتب وسياسي فرنسي (1805-1859) سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وألف كتابا شهيرا (الديمقراطية في أمريكا) ناقش فيه مواطن القوة والضعف في النظام السياسي الأمريكي.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

الحكومة وتحقيق السعادة

هل يبقى عجب بعد ما أوردناه في أن دور الحكومة كلما توسع، وأصبحنا نتنافس على أعطيات الحكومة، حلت «القوة» محل «الحكمة» و«الفصاحة»؟ ومن ثم تكون النتيجة مجتمعا أقل «مدنية» بكثير.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net